الشرق الاقصى

حقائقه واوهامه

الصين الجديدة ومركزها العالمي بين الدول العظمى[1]

عن الفيلسوف برتراند رسل

تمتاز الصين في العصر الحاضر بمركز يكاد يكون فريداً بين امم القارات الخمس . فهي من حيث التعداد اعظم امم الارض ، ولكنها من حيث القوة المادية في مؤخرة الدول . ظلت الصين اربعين قرناً وعلى رأسها امبراطور مقدس يستمد سلطتهُ من السماء . ولكنها بمعجزة غريبة غيرت نهجها هذا في فاتحة العقد الثاني من القرن العشرين، فأصبحت جمهورية ديمقراطية على النسق الحديث . غير ان هذه المعجزة الغريبة لها اسباب واقعية . فاننا اذا قطعنا بحرة قلم واحدة ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة من تاريخ الصين ووصلنا الى سنة ١٦٤٤ صادفنا في ذلك الطريق غزو « المانشو » — Manchus — اذ اقتلع غازٍ من عظام الغزاة هبط على الصين من الشمال فأذلها وتربع على عرش « التنين » ملكاً حاكماً بأمره . ولقد حاول هذا المستبد ان يبث في الصين عادات جديدة ويقضي على عادات قديمة . فقبل اهل الصين كل جديد ولكنهم رفضوا ان يبدلوا اي قديم من عاداتهم الموروثة . وفي هذا دليل واضح على روح المحافظة التي امتاز بها هذا الشعب الفذ بين شعوب الارض قاطبة

غير انهُ لم يمض على اسرة « المانشو » غير قليل حتى اصبحوا صينيين روحاً وتقاليد بيد ان اختلاف الزيّ والعادات حفظ عليهم طابعاً جعلهم بعيدين بعض الشيء عن الامة التي غزوها والتي هي اعرق منهم مدنية وأعمق في الحضارة منهم اصلاً . فظل اهل الصين منهم على حذر وفي قلوبهم ريبة من امبراطورتهم . ومن سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩٠٠ تتابعت الحروب على الصين حتى انتهت بثورة « البوكسر »، فكان ذلك سبباً في الاساءة الى سمعة الاسرة الامبراطورية

---

(١) تتخير من الفصل الرابع من كتاب « مشكلة الصين » للفيلسوف الانجليزي الكبير «برتراند رسل» وربما تابعنا بعض فصول الكتاب حتى يقف القراء على نهج من حقائق الشرق التي تنقب عنهم ، لاسيما وان هذا الكتاب قد ظهر بعد ان تغير مؤلفه في الصين رداحاً من الزمن ، وفيه من الاعتدال وروح التسامح مايحفل بنا الاشارة اليه

وضاع هيبتها ، وحذرت كثيرين من مفكري البلاد الى مجاراة الاوربيين في خططهم المدنية وحضارتهم الحديثة . ولا يدلك على مقدار ما انتاب الصين من الاحداث العظام في خلال ذلك العهد الا اذا علمت ان الثورة التي قامت في سنة ١٨٤٩ واستمرت حتى سنة ١٨٦٤ قد اودت بأرواح ما لا يقل عن ١٥٠ مليوناً من اهل الصين كما يقول المؤلف بنتام ويل Puntam Weale وان خسائرها لا تقل عن خسائر الحرب العظمى شيئاً. ولقد ساد الاعتقاد أنهُ ليس في مقدور الامبراطور « المانشوي » ان يخضعها ، ولكنهُ افلح بمساعدة القائد غوردون ان يتغلب على الثورة. غير انهُ لم يكد يتغلب عليها حتى كانت قد استنزفت كل قواه وانهكت موارده وأضاعت هيبته وهيبة الحكومة التي يرأسها معاً . كذلك كانت هزيمة الصين في حربها مع اليابان (١٨٩٤ — ٩٥) وانتقام الدول العظمى من الصين عقب ثورة البوكسر (١٩٠٠) سبباً في ان يفتح اهل الصين اعينهم والمفكرون منهم على الاخص ، فيروا ان الصين في حاجة الى حكومة اكثر ملاءمة لضرورات العصر الحديث من حكومة الامبراطور السماوي او بالاحرى حكومة « ابن السماء » كما يقولون . غير ان الحوادث تتحرك ببطء في بلاد الصين فلم تندلع ألسنة الثورة الا بعد احد عشر عاماً من قمع ثورة البوكسر

كانت ثورة الصين في سنة ١٩١١ ثورة معتدلة شبيهة كل الشبه بثورة انكلترا سنة ١٦٨٨ ولقد ايد الجمهوريون « سن يات سن » قوام الثورة وعمادها ، فانتخب بعد ان نجحت الثورة رئيساً لاول حكومة جمهورية في « امبراطورية السماء » . غير ان جيش الشمال ظل موالياً للاسرة الامبراطورية ، وكان من الجائز ان يتمكن من هزيمة جيوش الجمهورية . غير ان قائد جيش الشمال « يوان شي كاي » اختصر الطريق فصالح الثوار واعترف بالجمهورية ، على قاعدة ان يكون اول رئيس لها بدل « سن يات سن » . ولقد ايدت السفارات الاجنبية « يوان شي كاي » ظناً منها انهُ رجل قوي الشكيمة يؤمن بالحديد والنار ، وانهُ بعيد عن ان يؤخذ بمرئيات الحرية ومغريات الديمقراطية وما اليها من المثاليات ! ولقد ظل شمال الصين اكثر ايماناً بالقوة الحربية واقل ايماناً بالحرية من الجنوب ، وبهذا استطاع أن يخلق « يوان شي كاي » من العدم جيشاً من اهل الشمال يضارع اي جيش في أية دولة من الدول العظمى . وكان طمعه ، كما كانت قسوته ، سبباً في ان ينال عطف رجال السلك السياسي من الاجانب ويفوز بشيء من تفهمهم. على أن ما انتاب الصين من المصائب والاحداث العظام بعد موته ، يحملنا على ان ننظر الى سياسته واساليبه في الحكم بشيء من العطف له ما يسوّغهُ

اجتمع البرلمان الصيني لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٣ بعد انتخاب حر ليضع قواعد الدستور . غير ان « يوان شي كاي » بدأ يناوئ البرلمان ويصارعه . ودارت المعركة حول حقوق رئيس الجمهورية وامتيازاته التي حاول البرلمان أن يجعلها محدودة غير مطلقة بيّنةً غير

فامضة . وكانت الاغلبية ضد « يوان » داخل البرلمان . ولكن كان من ورائه الجيش وقوة الحراب . فما لبث أن اظهر بحادث فعلي انهُ مستقل في المسائل المالية عن البرلمان اذ عقد قرضاً مع البيوت المالية الاجنبية ، من غير ان يفكر في مصادقة البرلمان . ومن غير ان يعبأ بانهُ سوف يحاسب على ما فعل . وقامت الثورة في الجنوب لوّاحة محطمة ، ولكنهُ بادر الى قمعها ومن ثمّ اخذ يعمل على ان يصبح الحاكم بأمره في امبراطورية السماء حتى تمّ لهُ ما أراد ، فاستبد بالسلطة وأخذ يعين قواد الجيوش وحكام الاقاليم حسب هواه ، وارسل بجنود الشمال لتحتل ارض الجنوب . وكان من الممكن ان ينجح في خطته وان يصبح امبراطوراً سنة ١٩١٥ ، لولا ثورة ناجحة عاجلته فمات في سنة ١٩١٦ بسكتة قلبية ، على ما يقال

ومنذ ذلك الحين بدأ عهد الفوضى الشاملة في الصين فان القواد الحربيين الذين تعصّبهم « يوان شي كاي » رفضوا ان يذعنوا للحكومة المركزية بعد ان رفعت يده القوية عن دولاب الحكم ، واخذ الجنود ينشرون في عرض البلاد وطولها حكم ارهاب لم تر الصين اسوأ منهُ خلال كل ادوار تاريخها الطويل . وظهرت بوادر الحروب الاهلية التي استمرت منذ ذلك الوقت قائمة على قدم وساق . ومما زاد الطين بلة ، ان هذه الحروب الاهلية كانت بلا غرض معين ولا مبدإ معروف ولا ضابط محدود . بل قامت لمصالح القواد ، فمنْ منهم يحكم اكثر من مقاطعة من مقاطعات الصين الواسعة ، ومَنْ منهم يفوز باعظم سلطة واكبر غنيمة . ولا تزال حتى اليوم آثار الخلاف بين الشمال والجنوب ظاهرة الاثر ، ولكنها اقل حدّة مما كانت من قبل وعلى الاخص على المسائل الدستورية

* * *

يحكم مديرو الاقاليم مستبدين بأمرهم من غير ان يفكروا ان في « بكين » حكومة يصح الرجوع اليها ، ويرتكبون في حكمهم هذا كل ما يخيل الى شخص ذي خيال من صنوف العسف والجور ، ولا يأنفون من ان يتردوا في اشنع دركات الغواية ، تقودهم الاطماع ولا يردعهم وازع ما عن ارتكاب المحرمات والمفاسد . وهؤلاء تعصبهم حكومة « بكين » ولكن اسماً ، وهم في الحقيقة لا يعتمدون على غير الجنود ، ولا يعترفون بقانون الاّ قانون الحديد والنار ، تسلطهُ الاهواء والاغراض والمطامع على اهل البلاد . هذا والحكومة المركزية في افلاس ، وكثيراً ما تعجز عن ان تدفع اجور رجال الجيش ، فيعمد هؤلاء الى البلاد الآمنة يوسعونها سلباً ونهباً او يقتسمون ما يمكن ان يصل الى ايديهم من اسلاب حكام الاقاليم فاذا ظهر ان اي حزب من الاحزاب قد قارب الانتصار وان نجمه اخذ في التألق في سماء الصين المظلمة ، مدت حكومة اليابان رجاله بالمال والعتاد وادوات الحرب من ميرة وذخيرة ليطول امد الفوضى المدنية ويمتد

عهد الخلاف الداخلي والحروب القومية . ولقد حدث مرة ان اجتمع ثلاثة من حكام الاقاليم في الصين وفي جوف العاصمة الكبرى وعلى مقربة من الحكومة المركزية بل بين سمع الحكومة المركزية وبصرها ، لا لشيء الا ليتفقوا على طريقة اقتسام الاسلاب . وكانوا فوق ذلك غير موالين لرئيس الجمهورية ولا لرئيس الوزارة . ولكنهم فضلاً عن هذا كله استطاعوا ان ينالوا من خزينة الحكومة المفلسة مبلغاً من المال ذكرت الجرائد حينذاك — بعيد الحرب العظمى بقليل — انهُ لا يقل عن تسعة ملايين من الدولارات ، تلقاه أن يظلوا في العاصمة لا يبرحونها الى مراكز اعمالهم فينشرون الفوضى ويقيمون الثورة في انحاء البلاد ويتقوا بها في بحر من الدماء . ولقد أصاب «شانج تسولن» حاكم منشوريا الكبر نصيب من هذا الغنم ، على الرغم من انهُ معروف بانهُ من صنائع اليابان . وتحت اي عنوان اعطي هذا القدر العظيم ؟ قيل اذ ذاك ان السبب فيه أن يقمع ثورة اندلعت ألسنتها النيرانية في « مونغوليا » . ولكن لم يشك أحد في انهُ سوف يبتلع هذا المال ، فابتلعهُ ، وظل مقيماً في مدينة « مكدن » من غير أن يحرك ساكناً

* * *

في أقصى الجنوب قامت حكومة من طابع آخر . فكانت جديرة بان تنال بعض الاحترام من الذين احتكوا بها . لقد نجحت « كانتون » وهي مبادة الديمقراطية في الصين ، في أن ترفع عن كاهلها ضغط الشمال بان هزمت جنوده في ربيع سنة ١٩٢٠ واقامت جمهورية قوية فيها كل عناصر التقدم والارتقاء تحت رئاسة « سن يات سن » . وتكونت هذه الجمهورية من مقاطعتين احداهما « كوانج تونج » وعاصمتها « كانتون » والاخرى « كوانجسي » . ودلت البوادر على انها سوف تغزو الجنوب كلهُ ، غير أن القائد الشمالي « ووبي فو » صدها عن الانبعاث في طريقها المرسوم بعدة انتصارات نالها على جيوشها في مقاطعة « هونان » . ولقد اتهمها اعداؤها بأنها كانت تحاول غزو الصين كلها وان تضم اطرافها تحت لواء جمهورية واحدة . ومهما يكن من هذا الامر فانها كانت حكومة تستحق معاضدة كل الامم التي تؤمن بالارتقاء في عصرنا هذا . ولقد عدد الاستاذ الفيلسوف « دبوي » فضائلها في مقالات نشرها في جريدة « الجمهورية الجديدة » مبيناً مقدار ما أظهرهُ الانجليز وسلطات «هونغ كونغ» من العداء لها ، وما حملا لها من الحنيظة والبغضاء . بيد أن كل هذا لم يكن عبثاً ، بل كان جرياً على قواعد وضعاها — اي الانجليز — ومبادئ انتحياها . فانا نبغض كل اصلاح متطرف يقوم به شعب ما في الشرق من ناحية ، وكنا نخشى على اتفاق « كاسل » — Cassel — أن ينقوض من ناحية أخرى . اما هذا الاتفاق فليس يغرب ان يعقد مثله مع الصين . فقد كان من شأنه أن تحتكر به الطرق الحديدية كلها والمناجم باجمعها في مقاطعة « كوانج تونج » .

وتم امره على يد الحكومة السابقة لحكومة «كانتون» هذه ولم يكن ينقصه ليصبح نافذاً الا المصادقة عليه ، ولكن تغيير الحكومة جعل المصادقة على هذا الاتفاق ضرباً من المحال. وكانت الحكومة الجديدة تعتمد على صداقة امريكا ، فاستطاع امريكي هو مستر « شانك » — Shank — ان يعقد اتفاقاً معها مقارباً للاتفاق الذي عقدناهُ مع الحكومة القديمة . غير ان الحكومة الامريكية لم تؤيد مستر « شانك » في حين اننا أيدنا اتفاق « كاسل » وعملنا على تنفيذه بكل الوسائل . فكانت سياستنا في الصين عمياء تؤيد ما هو فاسد لتقضي بهِ على ما هو حسن . أيدنا حكومة ساقطة لتسقط حكومة قوية شديدة رشيدة

***

ان الفوضى في الصين لها بحزن اصدقاءها ، الذين يودون من صميم قلوبهم أن يروا عهدها قد انقضى وحل محلها النظام . ولكن من اكبر الخطأ ان نبالغ في تصوير الشر ، أو نزعم بانهُ شرلا مثيل لهُ في أوروبا. واذا أردنا الموازنة فلا يجب ان نوازن بين الصين وبين دولة بعينها من ممالك أوروبا ، بل يجب ان تكون الموازنة بين الصين من ناحية وأوروبا كلها من ناحية أخرى . فقد قرأت في جريدة التيمس الصادرة في ١١ نوفمبر سنة ١٩٢١ مقالاً ملؤ تشاؤماً عنوانهُ « الخطر في الصين : احدى عشرة حكومة تتنازع » . غير أننا نجد اذ ننظر في أوروبا اكثر من احدى عشرة دولة ، ان العداء بينها اشدُّ كثيراً مما هو بين حكومات الصين . وعدد الجنود في أوروبا أكبر منهُ في الصين بما لا يقدر من الاضعاف ، وجنود أوروبا أكثر استعداداً للتخريب والهدم بما أوتوا من معدات الحروب المهلكة . وعدد المصادمات الحربية في أوروبا منذ الهدنة اكثر مما وقع في بلاد الصين في خلال العهد ذاته . وانك لتخترق بلاد الصين من طرف الى الآخر ، فلا تقع عينك على مظهر ما من مظاهر الاستعداد للحرب ، كما ان المعارك في الصين قلما تكون دموية ، لان المحاربين أجراء لا يهمهم انتصار ولا هزيمة . وانهُ ليخيَّل اليَّ أن اهل الصين في الوقت الحاضر لاسعد حظاً وأرضى بالاً في المجموع من اهل اوربا في جملتهم

من الواضح على ما اظن ان الاصلاح سوف يبدأ في الصين بتكوين اتحاد برلماني يمنح الاقاليم قدراً عظيماً من الاستقلال الذاتي . فان تقسيم الصين الى مقاطعات نظام من اقدم الانظمة والشعور الاقليمي شديد ثابت الاثر في نفسية اهل الصين

بعد ان تمت الثورة حاول الصينيون ان يقيموا برلماناً على دستور نقلوهُ مشابهتهُ للدستور انكلترا او تشتدُّ ، مع فارق واحد هو انهُ كان تحت امرة رئيس جمهورية بدلاً من ملك. غير انهُ لا يغيب عنا انهُ من اجل ان ننجح في تكوين حكومة مركزية غير متحلة ، يجب

ان تحاول التجربة في شعب متحاش قليل الاعتداد بروح الاقليم والشعور المرضي . وان تجربتنا في ايرلندا لأكبر شاهد على صحة ما نذهب اليه . وكل المحدثين من اهل الصين يميلون الى تكوين حكومة اتحاد لا يترك للحكومة المركزية الا السلطة على الجيش والتسليح والعلاقات الخارجية والجمارك . غير ان الصعوبة في التخلص من القوضى العسكرية القائمة اليوم عظيمة . فان الحكومة المركزية لا تستطيع تسريح الجنود ، لانها لا تجد لديها من المال ما يكفي لدفع اجورهم . ولهذا يجب ان تقترض الحكومة من الخارج ما يكفي من المال لتدفع للجند ما لهم من الاجور وتوجههم الى اعمال حرة منتجة . ولكنه من الشكوك فيه كثيراً ان تقرض دولة او دولات بلاد الصين قرضاً من غير ان تحاول ان يكون ثمن القرض القضاء الاخير على البقية الباقية من استقلال البلاد . لهذا نأمل ان يجد الصينيون طريقاً آخر يقضون به على متاعبهم من غير ان يلجأوا الى المساعدة الاجنبية بحال من الاحوال .

* * *

اذا تركنا الحرب جانباً ، وجدنا ان للحضارة الاوربية تأثير في الصين من طريقين : الاول طريق التجارة : والثاني الطريق العقلي . على ان كلا الطريقين انما يمهد الى السلاح ليطبع اثره على جبين الصين . فلو اننا لم نستطع ان نهزم الصينيين في الحرب المسلحة ، لما فتحوا لنا ثغراً واحداً من ثغورهم لتجارتنا ، ولا حاول ذهن واحد من اذهانهم ان يستوعب شيئاً من افكارنا وتأملاتنا . غير ان الفاتحة الحربية التي بدأنا بها علاقتنا مع الامبراطورية كادت تزول الآن من الاذهان ويمحى اثرها . فانهُ يصعب عليك الآن ان تقع على حالة واحدة من حالات كثيرة تقوم كل يوم في انحاء الحياة الصينية يمكن ان تستدل بها على أنهم يظنون ان الاحتكاك بالامم البيضاء كان نكبة على الصين ، اللهم الا حيث تجد ان روح المحافظة التقليدية قد تغلبت على كل الاعتبارات الاخرى . ولاهل الصين سليقة تجارية ممتازة بل موروثة ، مصحوبة بقدر عظيم من حب الاطلاع والاستطلاع . وكلا الامرين من الاشياء التي يمتاز بها اهل أوروبا على غيرهم من الامم . وان قليلاً من الاعتدال وليونة الطبع يكفيانك لان تنال صداقتهم ، سواء في العلاقات الخاصة ام العلاقات السياسية . وانهُ ليخيَّل اليَّ ان أفكارهم وتأملاتهم كفيلة بان تغذي ثقافتنا بمستحدثات فذة نادرة ، بقدر ما تكفل لنا تجارتهم من عمار الجيوب

[ابن طفيل]